

الفن الفلسطيني والثورة

كمال بُلّاطة

نشرت في: فتح-الجريدة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، العدد 302 (8 أيلول/ سبتمبر 1971): 15.

تاريخياً اثنان في المجتمع أقوالهما لا تهّم بقدر أعمالهما: السياسي، والفنان.

أن يجلس رسام عربي اليوم يتحدّث عن الفنّ بدل أن يرسم، هو كالسياسي العربي الذي صعد منبراً وحدّثنا عن تاريخنا القادم، بينما كنّا متمدّدين في فراشنا: الحالتان متساويتا الخطورة.

ما حدث من تخلف للطاقت الطليعية العربية كان نتيجة أقوال السياسيين العرب وعدم فعلهم. في حقلي كرسام واجبي أن أرسّم لا أن أتحدّث عن الفن. أريد أن أتخاشى الوقوع في نفس خطيئة السياسي العربي، ولكن طبيعة المرحلة النضالية تلزم الرسّام في هذا الزمن على أن يكون ناقداً وفناناً وسياسياً وإنساناً وعاشقاً ومحارباً في آنٍ واحد. مهنة الفنان الأولى كانت دوماً مهنة واحدة: لم تكن مهنته الرسم ولا النظم ولا الخلق، مهنته كانت دوماً وقبل كل شيء الإخلاص... قمة الإخلاص. مادّته الخام: الحياة. هنا أسمح لنفسي بالتكلّم عن الفن [الذي] لم يره أحد بعد لأنه لم يولد بعد. الثورة الشاملة هي التي تخلق الفنّ الثوري، وليس العكس بالعكس. كما أنه لا يمكن أن تكون هنالك ثورة سياسية دون ثورة اجتماعية، كذلك لا يمكن أن تكون ثورة اجتماعية دون ثورة أخلاقية، وأيضاً لا يمكن أن تكون ثورة أخلاقية دون ثورة فنية. شهداء الثورات وتجارها عُرفت في أكثر من زمان وأكثر من مكان. الثورة الفلسطينية ما تزال برعماً في طور التكوين. معظم ما نراه من فنّ فلسطين هو عبارة عن فنّ تقليدي متطّفل على الثورة، وهو ينتمي إلى العالم القديم لأنه يحمل رؤى تقليدية. إنه ظواهر فنية وليس بعد الفعالية الفنية الثورية المغيرة في الفن والمجتمع. معظم ما رأيناه حتى الآن من أعمال فنية فلسطينية هو فنّ عودة إلى فلسطين، أن ندعوه فناً ثورياً هو تناقض لأن العودة حركة تشدّنا إلى الوراء، بينما الثورة تدفعنا إلى الأمام.

والأخطار التي تحيط بالفنّ الفلسطيني اليوم لها علاقة جدلية بالأخطار التي تحاط بها الثورة الفلسطينية. أن تباع اللوحة التي تدّعي أنها تنتمي إلى الثورة الفلسطينية بمئات الدنانير هي خيانة لقضية الثورة والشعب، وهي تكوين ثروة على دماء الشهداء الحقيقيين الذين يموتون من أجل صنع الثورة. هذا النوع من الإنتاج الفني مكرّس لامتياز طبقة واحدة ومعينة من المجتمع العربي ومحزّم على غيرها، وهو مجرّد "إكسسوار" لصالونات البرجوازية.

والواجب الأول الذي على الفنان الثوري الفلسطيني أن يقوم به هو نسف هذه المقاييس للوحة والعمل الفني.

الحياة التي تحيط بالفنان، في العالم الثالث، حياة تلزمه، كإنسان، بالاشتراك في تحقيق الثورة، أعماله تشارك في تغيير مضمون الفرد، الفن الثوري ليس نتيجة عقائد ثورية وإنما نتيجة حياة ثورية وأعمال ثورية، الأعمال الثورية لا تغير مفاهيم المضمون دون الشكل أو الشكل دون المضمون في العمل الفني، وإنما تغير الاثنين معاً نحو الجديد النابع من المجتمع المتغير، ولا تقتصر على ذلك فحسب، بل تغير المكانة الموروثة للفن في المجتمع.

العالم الفني في الغرب تطوّر في خطّ البورجوازية والرأسمالية، وفي المعسكر الاشتراكي دهمت الستالينية طبيعة الفن الحرة، فأصبحت الأعمال الفنية الكبرى مجرد استثمارات مالية بالنسبة للأغنياء وتجّار اللوحات، والفن بات أشكالاً بهلوانية يكبر حجمها على مساحة اللوحة بقدر ما يصغر فيها المضمون الفني. تجرّد الفن من قيمة الإنسانية عندما صار الفنان آلة مقيّدة في عجلات النظام الرأسمالي وعندما سقط في روسيا تحت نعال الستالينية.

الفنّان والمجتمع في العالم الثالث، وخاصة في العالم العربي، لم يتلوّث بعد بلا إنسانية الفنّ الغربي المعاصر، لأن تاريخ فنّ الأستوديو لدينا لا يتعدّى المائة عام. قضية الشكل والمضمون في الفن التي كانت حلقة صراع في الغرب طيلة قرون ما تزال في أعمال الفنانين العرب مجرد اهتزازات وصدى لتيار الغرب.

لا يوجد لدينا مفهوم "الغالييري" ولا تاجر اللوحات أو جامعها، كما لا يوجد بيننا الناقد المتفلسف الذي يتحدّث في قضية المضمون والشكل في فنّ الرسم وكأنه يتحدّث عن الموسيقى. هنا تقع مسؤولية الفنّان الكبرى في العالم الثالث، عطاؤه الجديد المنفصل عن المفهوم البورجوازي للفنّ لن ينحصر فيما يعطيه لأُمَّته في مواساة وتشجيع، وإنما بقدرته على خلق فنّ جديد للعالم.

لقد كانت الأعمال الفنية الفلسطينية التي رأيناها حتى الآن صورة—مرآة للواقع الفلسطيني، بينما الفن هو تجاوز الواقع وإعادة خلقه. وبهذا المفهوم فإن العمل الفني الثوري الفلسطيني الحقيقي الوحيد الذي خرج إلينا خلال هذه المرحلة القصيرة للثورة هو الرسوم التي حقّقها أطفال فلسطين في المخيمّات، لأن هذه الأعمال لا تدخل ضمن فنّ المجتمع. ولكنها صورة تعبيرية حياتية عن واقع يعيشه فعلاً هذا الطفل ويخلقه بأشكال فنية جديدة. إن هذا الطفل الفلسطيني الذي لا تستطيع يده البريئتان حمل السلاح، بعد، قد حمل الفرشاة الآن لكنه سيكون في المستقبل هو وحده الفنان المقاتل، ويومها سيكون بوسعنا أن نتحدث، بل أن نرى ونعيش فنّاً فلسطينياً ثورياً، وحياة ثورية عربية فلسطينية

الفن الفلسطيني.. والثورة

تاريخياً إنسان في المجتمع أقوالها لا تهم بقدر أعمالها : السياسي والفنان .

إن يجلس رسام عربي اليوم يتحدث عن الفن بدل أن يرسم . هو كالسياسي العربي الذي ساعد متبراً وحدتنا عن تاريخنا القادم بينما كنا متهمدين في فرنسا : العائنان متساويتا الخطورة .

ما حدث من تخلف للطلاقات الطليعية العربية كان نتيجة أقوال السياسيين العرب وعمد منهم . في خلفي كرسام واجبي أن أرسم لا أن أتحدث عن الفن . أريد أن أتحدث عن الواقع في نفس خبيئة السياسي العربي . ولكن طبيعة المرحلة التضالفة تلزم الرسام في هذا الزمن أن لا يكون ناقداً وفناناً وسياسياً وأساساً وعاشقاً ومعارفاً في آن واحد . مهنة الفنان الأول كانت دواما مهنة واحدة : لم تكن مهنته الرسم ولا النظم ولا الخلق . مهنته كانت فرعا وليل كل شيء . الإخلاص .. قوة الإخلاص . مادته الخام : الحياء . هنا أسمح لنفسي بالتكلم عن الفن لم يره أحد بعد لأنه لم يوجد بعد . الثورة الشاملة هي التي تخلق الفن الثوري وليس العكس بالعكس . كما أنه لا يمكن أن تكون هناك ثورة سياسية بدون ثورة اجتماعية . كذلك لا يمكن أن تكون ثورة اجتماعية بدون ثورة أخلاقية بدون ثورة فنية . شهداء الثورات وتجارها عرفت في أكثر من زمان وأكثر من مكان . الثورة الفلسطينية ما تزال برعيا في طرد الكونين . معلم ما نراه من فن فلسطين هو عبارة عن فن تقليدي منطلق على الثورة . وهو ينتمي إلى العالم القديم لأنه يجعل رؤى تقليدية . أنه طواهر فنية وليس بعد الفعالية الفنية الثورية المفرة في الفن والمجتمع . معظم ما رأيناه حتى الآن من أعمال فنية فلسطينية هو فن عودة إلى فلسطين . إن ندعوها فننا ثوريا هو تناقض لأن العودة حركة تشدنا إلى الوراء . بينما الثورة تدفعنا إلى الأمام .

والإختار التي تحيط بالفن الفلسطيني اليوم لها ثلاثة جوانب بالاختصار التي تحيط بها الثورة الفلسطينية . أن تباع اللوحة التي تدعى أنها تنتمي إلى الثورة الفلسطينية بمئات الدولارات هي خيانة لفضيلة الثورة والشعب . وهي تكوين ثروة على دعاء الشهداء الحقيقيين الذين يموتون من أجل صنع الثورة . هذا النوع من الإنتاج الفني مكرس لامتياز طبقة واحدة ومعينة من المجتمع العربي ومعلم على غيرها . وهو مجرد « أكسسوار » لمساوونات البرجوازية . والواجب الأول الذي على الفنان الثوري الفلسطيني أن يقوم به هو نفس هذه المقاييس للوحة والعمل الفني .

الحياء التي تحيط بالفنان . في العالم الثالث . حياء تلزمه . كاتسان . بالاشتراك في تحقيق الثورة . أعماله تشارك في تغيير مضمون الفرد . الفن الثوري ليس نتيجة عقائد ثورية وإنما نتيجة حياء ثورية وأعمال ثورية . الأعمال الثورية لا تغير مفاهيم الضموم دون الشكل أو الشكل دون الضموم في العمل الفني وإنما تغير الأثنين معا نحو الجديد التابع من المجتمع المتغير . ولا تقتصر على ذلك فحسب بل تغير المكانة الموروثة للفن في المجتمع .

العالم الفني في الغرب تطور في خط البيروقراطية والرأسمالية . وفي المعسكر الاشتراكي دعمت المسالينية طبيعة الفن الحرة . فأصبحت الأعمال الفنية الكبرى مجرد استثمارات مراكبة بالنسبة للأغنياء . وتجار اللوحات . والفن بات اشكالا بهلوانية يكبر حجمها على مساحة اللوحة بقدر ما يصغر فيها الضموم الفني . تجرد الفن من قيمة الانسانية عندما صار الفنان آلة مفيدة في عجلات النظم الرأسمالي وعندما سقط في روسيا تحت نعال المسالينية .

الفنان والمجتمع في العالم الثالث . وخاصة في العالم العربي . لم يتلوث بعد بلا انسانية الفن الغربي المعاصر . لأن تاريخ فن الاستديو لدينا لا يتعدى المائة عام . قضية الشكل والضموم في الفن التي كانت حلقة صراع في الغرب طيلة قرون ما تزال في أعمال الفنانين العرب مجرد امتزازات وصدى لتيار الغرب .

لا يوجد لدينا مفهوم « الغاليري » ولا زاجر اللوحات أو جامها . كما لا يوجد بيننا الناقد المتفلسف الذي يتحدث في قضية الضموم والشكل في فن الرسم وكأنه يتحدث عن الموسيقى . هنا تقع مسؤولية الفنان الكبرى في العالم الثالث . عطائه الجديد المنفصل عن المفهوم البيروقراطي للفن لن ينحصر فيما يعطيه لامته في مواساة وتشجيع . وإنما بقرته على خلق فن جديد للعالم .

لقد كانت الأعمال الفنية الفلسطينية التي رأيناها حتى الآن صورة - مرآة للواقع الفلسطيني بينما الفن هو تجاوز الواقع وإعادة خلقه . وبهذا المفهوم فإن العمل الفني الثوري الفلسطيني الحقيقي الوحيد الذي خرج لنا خلال هذه المرحلة القصيرة للثورة هو الرسوم التي حققها أطفال فلسطين في المخيمات . لأن هذه الأعمال لا تدخل ضمن فن المجتمع ولكنها صوت تعبيرية حياتية عن واقع يعيشه فعلا هذا الطفل ويخلفه بانسكال فنية جديدة . إن هذا الطفل الفلسطيني الذي لا تستطيع يداه البرينتان حمل السلاح - بعد - قد حمل الفرشة الآن لكنه سيكون في المستقبل هو وحده الفنان المقاتل . وبومها سيكون بوسعا لا أن نتحدث بل أن نرى ونعيش فن فلسطيني ثوري . وحياء ثورية عربية فلسطينية .

كمال بلاطة □